وقفة مع قوله تعالى: أن أدوا إلي عباد الله

كتبه محمد الصغير الجمعة ٠٣ صفر ١٤٤٣

رأينا في المقال السابق من هذه السلسلة الأمر بارتقاب عذاب يعم أهل الأرض, ليتعظ الناس ويتوبوا إلى بارئهم قبل فوات الأوان, واليوم سوف نقف مع آيات تحدثنا عن نفس المصير المرتقب, ولكن هذه المرة قدث بالفعل ولنقرأ:

﴿ وَلَقَد فَتَنّا قَبلَهُم قَومَ فِرعَونَ وَجاءَهُم رَسولٌ كَريمٌ۝أَن أَدّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنّي لَكُم رَسولٌ أَمينٌ۝وَأَن لا تَعلوا عَلَى اللَّهِ إِنّي آتيكُم بِسُلطانٍ مُبينٍ۝وَإِنّي عُذتُ بِرَبّي وَرَبِّكُم أَن تَرجُمونِ۝وَإِن لَم تُؤمِنوا لي فَاعتَزِلونِ۝فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَومٌ مُجرِمونَ۝فَأَسرِ بِعِبادي لَيلًا إِنَّكُم مُتَّبَعونَ۝وَاترُكِ البَحرَ رَهوًا إِنَّهُم جُندٌ مُغرَقونَ۝كَم تَرَكوا مِن جَنّاتٍ وَعُيونٍ۝وَزُروعٍ وَمَقامٍ كَريمٍ۝وَنَعمَةٍ كانوا فيها فاكِهينَ۝كَذلِكَ وَأَورَثناها قَومًا آخَرينَ۝فَما بَكَت عَلَيهِمُ السَّماءُ وَالأَرضُ وَما كانوا مُنظَرينَ ﴾

الدخان: ١٧-٢٩

لعلنا نتعظ مما حدث للأمم السابقة, فقصتهم تتطابق مع قصتنا, كل منا أتاه رسول كريم بكتاب مبين, فاستكبروا هم وأصابهم العذاب الذي أفناهم, وهو ما سوف يصيبنا نحن أيضا إن كذبنا كما كذبوا, فالجزاء من جنس العمل, وتعال بنا نتدبر هذه الآيات

يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَلَقَد فَتَنّا قَبلَهُم قَومَ فِرعَونَ وَجاءَهُم رَسولٌ كَريمٌ ﴾

الدخان: ١٧

فتنا بمعنى ابتلينا, فالرسل أرسلوا ليبتلوا الناس حتى يمتاز الصادق من الكاذب, يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَإِذ أَخَذنا مِنَ النَّبِيّينَ ميثاقَهُم وَمِنكَ وَمِن نوحٍ وَإِبراهيمَ وَموسى وَعيسَى ابنِ مَريَمَ وَأَخَذنا مِنهُم ميثاقًا غَليظًا۝لِيَسأَلَ الصّادِقينَ عَن صِدقِهِم وَأَعَدَّ لِلكافِرينَ عَذابًا أَليمًا ﴾

الأحزاب: ٧-٨

فكل الناس يدعي أنه مؤمن بالله, مطيع له, وأن ما يفعل إنما يفعله طاعة لله وتقرباً إليه:

< وَإِذا فَعَلوا فاحِشَةً قالوا وَجَدنا عَلَيها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها قُل إِنَّ اللَّهَ لا يَأمُرُ بِالفَحشاءِ أَتَقولونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعلَمونَ >

الأعراف: ٢٨

< أَلا لِلَّهِ الدّينُ الخالِصُ وَالَّذينَ اتَّخَذوا مِن دونِهِ أَولِياءَ ما نَعبُدُهُم إِلّا لِيُقَرِّبونا إِلَى اللَّهِ زُلفى إِنَّ اللَّهَ يَحكُمُ بَينَهُم في ما هُم فيهِ يَختَلِفونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهدي مَن هُوَ كاذِبٌ كَفّارٌ >

الزمر: ٣

فلابد إذاً من الابتلاء حتى يتميز الصادق من الكاذب, وهذا الابتلاء هو إرسال رسول كريم أمين, برسالة واضحة من رب العالمين, ليطيعها الناس إن كانوا صادقين في دعواهم عبادة الله وحبه

< أَن أَدّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنّي لَكُم رَسولٌ أَمينٌ >

الدخان: ١٨

إن هذه الرسالة عبارة عن أوامر واضحة وصريحة, تتجلى فيها العبودية لله وحده, فهي بعيدة عن التنظير المجرد, وإنما أوامر على المرء تنفيذها

أَن أَدّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ

وهي في نفس الوقت عادلة, لا يمكن رفضها بحجة أنها جائرة, فالعباد, عباد الله, هو من خلقهم ورزقهم, فأدوهم إلى رسوله بدل استعبادهم, هذا مطلب عادل لا جور فيه, ولا ظلم.

ولكن هذا المطلب قاس على نفس فرعون وقومه, فعباد الله هؤلاء هم القوة العاملة, وفي ذهابهم ضياع الاقتصاد, ولذلك اعتبر ملأ فرعون أن موسى أتى ليزيل ملكهم:

< قالَ المَلَأُ مِن قَومِ فِرعَونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَليمٌ۝يُريدُ أَن يُخرِجَكُم مِن أَرضِكُم فَماذا تَأمُرونَ >

الأعراف: ١٠٩-١١٠

أي أن هذه الأوامر في تطبيقها زوال دنياهم كما يعتقدون, وهكذا أوامر الله بالنسبة لكل الأمم

﴿ وَقالوا إِن نَتَّبِعِ الهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّف مِن أَرضِنا أَوَلَم نُمَكِّن لَهُم حَرَمًا آمِنًا يُجبى إِلَيهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيءٍ رِزقًا مِن لَدُنّا وَلكِنَّ أَكثَرَهُم لا يَعلَمونَ ﴾

القصص: ٥٧

أي أن الابتلاء في حقيقته هو تخيير بين الله وما عنده من جزيل الثواب في الآخرة، وبين الدنيا وزخرفها، وهذا نص عليه ربنا مرارا، من ذلك

﴿ مَن كانَ يُريدُ العاجِلَةَ عَجَّلنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَن نُريدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصلاها مَذمومًا مَدحورًا۝وَمَن أَرادَ الآخِرَةَ وَسَعى لَها سَعيَها وَهُوَ مُؤمِنٌ فَأُولئِكَ كانَ سَعيُهُم مَشكورًا ﴾

الإسراء: ١٨-١٩

فأوامر الله في ظاهرها لا تخدم الدنيا، ولن يقوم بتنفيذها إلا من باع دنياه بآخرته.

هذا يعني أنه علينا أن نتجرد تماما من الدنيا ونتعلق بالآخرة، وإلا فإن الإسلام الحقيقي لن يكون، مهما ادعينا ذلك بألسنتنا، فالأمر أمر عمل، وأوامر الله صريحة ولا تترك مجالاً للتعلق بالدنيا.

إِنّي لَكُم رَسولٌ أَمينٌ

حتى يقتطع العذر فإن الرسالة أرسل بها رسول كريم أمين، لم يزد فيها ولم ينقص منها، فلم يبق لابن آدم سوى التسليم والإذعان لأمر ربه، أو التعلق بالدنيا ونبذ أوامر ربه وراء ظهره، ولا خيار ثالث.

نتوقف مع هذا الدرس حتى نقوم بمراجعة أنفسنا هل نحن فعلا مستعدون للتضحية بدنيانا من أجل آخرتنا؟

أم أن النفس لا تزال بها عُلاقة من الدنيا عليها أن تتحرر منها لكي تقبل على أوامر الله منيبة مخلصة طامعة في مغفرته وجنانه؟

وسوف نواصل مع السورة إن شاء الله في قابل الأيام.